افتتاحية العدد

العرب، اسرائيل، أمريكا، والمفاوضات

غسان سلامة

أستاذ العلوم السياسية في جامعة باريس.

- ١ -

لعشرين سنة خلت، جرت بين العرب واسرائيل حرب تبدو لنا اليوم وكأنها كانت الأخيرة. فبعدها لم تحصل حروب تذكر. وما كان غزو لبنان البشع إلّا فاصلاً، محدود المغزى عسكرياً، ولو أنه جدير بالتأمل السياسي. أما في الأساس فلم يتقابل جيش عربي مع جيش اسرائيل في موقعة شاملة خلال عقدين من الزمن.

والذين يذكرون آخر الحروب العربية ـ الاسرائيلية، يتذكّرون أيضاً، ولا شك، أن الفكرة السائدة آنذاك كانت بالفعل أن حرب تشرين (رمضان) قد تكون الأخيرة. فالمناخ السائد آنذاك كان مليئاً بالتصورات الطوباوية حول حلاوة الانتصار، و «معجزة العبور»، بل و «نهوض الانسان العربي الجديد». وكان يقين الكثيرين، أن العرب، بعد هزيمة ١٩٦٧ المريرة، قد استطاعوا في موقعة تشرين، أن يخرجوا من شعور أليم بالعجز، ومن حزن الفشل الذريع، ومن تصوّر مستقر بنقص بنيوي في الذات. ثم إن العرب أثبتوا آنذاك مستوى رفيعاً من التضامن والتنسيق والتخطيط المتوازي، وربما المشترك. كما برهنوا عن روح قتالية عالية، وعن عزم واضح على استعادة ما أخذ قبل سنوات بالقوة، فاقتضى استرجاعه بالقوة عينها. واستطاع المحاربون منهم آنذاك تعبئة الأثرياء لما فيه مصلحة الجميع: مصلحة من ذهب إلى القتال، ومصلحة من أقفل أنابيب النفط، وأعاد تقييمه في السوق.

وحملت هذه الأفكار غير واحدٍ من زعماء العرب، ومن مفكّريهم على القول بأن حرب ١٩٧٣ كانت رداً كافياً على التي سبقتها، وبأن العرب استجمعوا ما يكفي من القوة والجدارة والكفاءة لكي يستخرجوا من قبضة العدو ما سبق له وسرقه منهم، بالنار والحيلة، في حزيران/ يونيو. كان ممكناً أن تكون حرب ١٩٧٣ آخر الحروب لأن توازناً بدا ممكناً بين الطرفين، ولأن التفاوض بدأ بالفعل قبل أن تصمت المدافع، بل إن التفاوض بدا ضرورياً لإسكات المدافع بصورة تسمح للتفاوض نفسه أن يستمر. وتوالت فعلاً الخطوات الكيسنجرية في الكيلومتر ١٠١، ثم باتفاق سيناء

الأول، فبتحرير القنيطرة وبالتالي باتفاقية سيناء الثانية، الموقّعة بعد حوالى سنتين بعد انتهاء الحرب نفسها.

لكن الاتفاقية الأخيرة كانت المفصل المحدّد لمسار ما بعد الحرب. فهي فتحت أمام مصر قناة السويس وباب أمريكا الواسع، وبالتالي فتحت أمام أنور السادات باب الكنيست الاسرائيلي، بينما امتعض العرب الآخرون واعترضوا. وهكذا بدت حرب ١٩٧٣ في الواقع الملموس آخر الحروب، لا لأن العرب استطاعوا ترجمتها إلى رافعةٍ يستعيدون بها أرضاً وكرامة، بل لأن مسار ما بعد الحرب كان في اتجاهٍ يمنع العرب فعلاً من خوض حرب جديدة بسبب خروج كبرى دولهم من منطق الحرب. وما استطاعت مشاريع بناء «جبهة شرقية» بديلة أن تعوّض يوماً عن تحييد مصر من المعادلة العسكرية.

وتوالت الأيام مؤكدة أن الحرب هدف غير واقعي ووسيلة ليست متاحة. فالعرب ما كانوا قادرين على بدئها، ولا حتى على التهديد بإعلانها بعد أن وقّعت القاهرة اتفاقية سلم كاملة، وبعد أن قرّر قادة الخليج، غداة اغتيال الملك فيصل، أن لا مزج بعد الآن بين النفط والسياسة. ورب متكهن بأن بين هذين العنصرين (تحييد مصر من النزاع العسكري، وتحييد النفط من المواجهة الشاملة) علاقة ترابط وثيقة، أو في الأقل علاقة تزامن مريبة. ويجب أن يبقى هذا التكهن في الذهن حتى يأتي اليوم الذي يستطيع فيه المؤرخون تأكيده أو نفيه.

لكن عقدين طويلين، ثريين بالتحولات الكبرى، مرّا منذ عبور القنال وتقدّم سوريا في جولانها. عشرون عاماً دون حرب مسافة طويلة من الزمن، لا سيما إن قورنت بالسنوات الثماني التي فصلت أولى الحروب العربية ـ الاسرائيلية عن حرب السويس أو بالسنوات الإحدى عشرة التي فصلت بين السويس وهزيمة ١٩٦٧، أو السنوات الست التي تلت الهزيمة وانتهت بحرب تشرين. وعشرون عاماً بلا حرب مع اسرائيل مسافة طويلة من الزمن إن تذكّرنا أنها مرّت سلمية، بينما النزاع مفتوح، والحرب الباردة مشتعلة (خصوصاً خلال النصف الأول من الثمانينيات)، وجنوب لبنان أسير دور الشاهد الثانوي على مأساة تتجاوزه، ولا يريد أبطالها أن يلعبوها، والجناح الشرقي من بلاد العرب مسرح لحرب طويلة مع ايران، ولأخرى صاعقة مع أمريكا. وعشرون سنة مسافة طويلة من الزمن إن هي قورنت بوضع الناس تحت الاحتلال، في عقد ونصف من القمع الناجح، وخلال سنوات أخيرة من الانتفاض الدامي بالحجر والسكين.

والواقع المرّ هو أن ذينك العقدين شهدا معادلة شديدة التعقيد: فلا العرب كانوا قادرين على الحرب، ولا اسرائيل كانت راغبة بها. أما عجز العرب فأساسه خروج مصر، وإخراج النفط من المعادلة. أما انعدام الرغبة الاسرائيلية فمرده إلى أن اسرائيل كانت مستفيدة من الوضع القائم كما هو: ضم للقدس فور الهزيمة، ضم للجولان سنة ١٩٨١، واستيطان متمادٍ في كل أرض احتلت. وهذا الاستمتاع المديد بالوضع القائم ما كان ليمنع اسرائيل من تسجيل نقاطٍ محدّدة كلما دعاها إلى ذلك تصوّرها لأمنها، ولوسائل تثبيت الوضع القائم. فهي ضربت المفاعل النووي العراقي، وهي طردت وأبعدت من ثبت تمثيله للناس تحت الاحتلال، وهي اغتالت قادة المقاومة الواحد تلو الآخر، وهي ضربت صواريخ سوريا في البقاع، وهي غزت بيروت ودمّرت لبنان، وهي ضاعفت في الآن نفسه امكاناتها العسكرية، التقليدية منها وغير التقليدية، مستفيدة حتى الثمالة من الكرم التكنولوجي الأمريكي، لا سيما في اتفاق التعاون الاستراتيجي الذي وقّعه شارون مع الأمريكان وسمح لاسرائيل بالدخول في صلب تكنولوجيا المستقبل العسكرية الغربية.

كان انعدام الحرب إذن نقطة تلاقٍ لانعدام قدرة عند العرب، ولانعدام رغبة عند اسرائيل. ولم تكن أمريكا غريبة عن هذه المعادلة، فهي التقطتها «**على الأرض**» سنة ١٩٧٣، وكرّستها يوماً بعد اليوم. أما تثبيت العجز العربي عن الحرب فكان بوسيلتين: تأكيد يومي للتفوق التكنولوجي الاسرائيلي، وضغوط متنوعة على العرب أنفسهم وعلى أصدقائهم في العالم، لكي يبقى العجز العربي على ما هو. أما تثبيت انعدام الرغبة الاسرائيلية في الحرب فكان من خلال وسائل عديدة؛ منها شراء السكون بالمساعدات، ومنها من خلال تأكيد تحييد مصر، ومنها من خلال التغاضي عن سياسات اسرائيلية هدفت إلى تحسين موقعها في المنطقة دون المساس بجوهر الأمر الواقع، كمثل تسعير الحرب العراقية ـ الايرانية، لإنهاك الطرفين، وردع العرب الدائم عن تملّك تكنولوجيا عسكرية متقدمة، وقمع دائم في الأراضي المحتلة.

وإن كان بالإمكان إيجاز السياسة الأمريكية خلال عقدين، فأفضل إيجاز هو تلك المعادلة السلبية: انعدام قدرة هنا، وانعدام رغبة هناك. ولم تكن واشنطن تتحرك فعلاً في المنطقة إلّا حين كانت تشعر بأن أيّاً من طرفي هذه المعادلة قادم على اهتزاز، أي عندما كانت ترى أن عرباً ما قد يطوّروا قدراتهم إلى حدّ جعل الحرب ممكنة، أو عندما كانت تتخوّف من أن اسرائيليين بدأوا يقرعون طبول الحرب، أو يدخلون في مجازفات قد تعرّض المعادلة الجوهرية للخطر. آنذاك كان سايروس فانس يقابل غروميكو للتهدئة، أو يأتي فيليب حبيب للملمة شتات أزمة الصواريخ السورية في البقاع، أو يركض حبيب نفسه مجدداً لإقناع شارون بأهداف حرب أكثر تواضعاً في لبنان أو يتأهب شولتز لجولة مكوكية هدفها إبقاء انتفاضة صبية فلسطين في حدود محلية مضبوطة. كان استمرار المعادلة السلبية معادلة الانعدامين، هو جوهر سياسة أمريكا. أما الباقي فتفاصيل صغيرة، تموّجات ظرفية على سطح ماء الركود، ركود انعدام الحرب، واستمرار النزاع.

ـ ٢ ـ

ونجحت أمريكا نجاحاً مطّرداً في تنفيذ هذه السياسة الوقائية، الحامية للأمر الواقع، المدافعة عن ميزان القوى المكسور. وهي نجحت إلى الحد الذي جعلتنا معه نتعامى عن أمرين أساسيين:

الأول، أن منطقتنا من العالم سمحت لواشنطن بالانتصار في الحرب الباردة قبل أن تفوز بذلك على المسرح الأساسي لتلك الحرب، أي في أوروبا. والواقع أن استقرار المعادلة الإقليمية في الشرق الأوسط سمح لواشنطن بتطويق الاتحاد السوفياتي من على جنوبه، وسرّع بالتالي من شعور موسكو بالهزال، ومن تسليمها بالفشل. وبينما كان الاتحاد السوفياتي ما زال نشطاً، ناجحاً إلى حد كبير، في عدد من الساحات، كمثل جنوب شرق آسيا بعد انتصار فيتنام وافريقيا السوداء (من خلال اثيوبيا وانغولا وموزامبيق وغيرها)، وفي أمريكا اللاتينية (حيث ثبّت كوبا وفاز بـ نيكاراغوا، كما كاد يفوز بالسالفادور)، بل وفي أوروبا نفسها، حيث استطاع إرغام الغرب على ندّية تكاد تكون مطلقة في التعامل... بينما كان الاتحاد السوفياتي يبدو صلباً كقطب دولي على كل هذه المسارح، كان وضعه يتدهور بسرعة مذهلة في المنطقة الممتدة «من مراكش إلى بنغلادش»؛ فتفرّدت أمريكا برعاية اتفاقيات كامب ديفيد، وعقدت مع اسرائيل اتفاق تعاون أدخل دولة اليهود في صلب معادلة الشرق والغرب، وكرّست مبدأ اللاحرب في الصراع العربي ـ الاسرائيلي، وحيّدت النفط عن السياسة، وحملت ايران الثورية على أن تعادي موسكو بقدر ما عادتها ايران الشاه، بل إنها انقضّت على الاتحاد السوفياتي من خلال الثغرة الأفغانية المفتوحة فجيّشت القوى المؤيدة لها، لا

سيما بين العرب، لنصرة مجاهدين استعملوا أساساً في إطار خطة واسعة هدفها تحويل افغانستان إلى فيتنام سوفياتية.

خلال هذه الفترة كلها، لم تكن أمريكا هي البادئة في معظم التطورات؛ فهي، فقط، كانت في وضع يسمح لها أكثر فأكثر بالاستفادة من أخطاء وضعف مناوئيها. وبدت واشنطن أكثر الأطراف استفادة (مع اسرائيل) من الحرب العراقية ـ الايرانية. وتدهورت أسعار النفط في الوقت عينه الذي كانت تتحوّل فيه أمريكا إلى مستورد لهذه المادة، ولم تدفع أمريكا ليبيا إلى مغامرات صبيانية في تشاد وأوغندا، ولكنها استفادت من فشل تلك المغامرات. ولم تقنع واشنطن سياد بري بمحاولة استعادة صحراء الأوغادين، ولكنها استفادت من بؤس هذه المحاولة لتطويق اثيوبيا. وفي الأساس هي لم تدفع موسكو للتورط في وديان أفغانستان، ولكنها عرفت كيف تحوّل ذاك الانزلاق إلى ورطة، وبالتالي إلى هزيمة للجيش الأحمر، سرّعت من تفكّك السلطة في موسكو، وضربت هيبة السوفيات ضربة، بدا لاحقاً أنها كانت قاتلة. من هنا استنتاجنا بأننا، في هذه المنطقة من العالم، لعبنا من حيث ندري أو لا ندري دوراً فاعلاً، **(كساحة، وأحياناً كأطراف فاعلة)** في عملية انهاء الحرب الباردة لمصلحة أحد قطبي تلك الحرب، ممّا يعني الكثير عن قدراتنا على التأثير في العالم، وعلى التأثير في أوضاعنا، بالإجمال لغير مصلحتنا.

أما **الثاني**، فهو أن الولايات المتحدة التي كانت لعقود من الزمن عازفة عن التدخل العسكري المباشر في منطقتنا من العالم، راحت تزيد من تدخلاتها المباشرة، دون ردّ فعل يذكر، دون كابح حقيقي، لا من أهل المنطقة أنفسهم، ولا من القطب السوفياتي الموازي. فالحرب الباردة، ودنو الاتحاد السوفياتي الجغرافي من منطقتنا، والوزن الأوروبي (ما قبل السويس) كانت كلها عناصر تدفع بالأمريكان إلى عدم القيام بأي تدخل عسكري مباشر في منطقتنا من العالم. وباستثناء دور متواضع سنة ١٩٥٨ في لبنان والأردن، لم تكن الولايات المتحدة تسعى إلى تدخلات مباشرة، خصوصاً أن عدداً من حلفائها في المنطقة، واسرائيل في طليعتهم، كان قادراً في الإجمال على حماية مصالحه ومصالح أمريكا في الآن معاً، كما بدا جلياً غداة حرب ١٩٦٧، حين تحوّل الانتصار الاسرائيلي الكاسح إلى ورقة رابحة في يد واشنطن، أعادت عليها تأسيس كامل سياستها في الشرق الأوسط. لذا استمرت واشنطن بالتدخل المباشر **(على الرغم من عقدة فيتنام العميقة)** هنا وهناك (في غرانادا، وباناما خصوصاً) وأبقت ٣٥٠ ألف عسكري على المسرح الأوروبي، ولكنها امتنعت عن التدخل العسكري المباشر في الشرق الأوسط.

لكن العقد المنصرم شهد تحوّلاً جذرياً في هذه المسألة أيضاً، بدأ سنة ١٩٨٢ حين نزل المارينز إلى بيروت، مما دفع إلى تداعيات سياسية حملت واشنطن في السنة التالية إلى قصف مواقع مؤيّدة لسوريا، وربما مواقع سورية أيضاً. وفي سنة ١٩٨٦ قامت واشنطن بمحاولة اغتيال من خلال قصف جوي مركّز على القيادة الليبية. بعدها بسنتين تدخلت البحرية الأمريكية في الخليج، حيث دمّرت في يوم واحد من شهر نيسان/ ابريل ١٩٨٨ حوالى ثلث البحرية الايرانية. وارتفع مستوى التدخل المباشر درجات عديدة عندما نشرت أمريكا أكثر من نصف مليون عسكري في الخليج تهيئة لحرب مدمّرة على العراق المتورط في الكويت. وما انتهت ولاية جورج بوش قبل أن نشهد تدخلاً محدوداً في كردستان العراق، ونشراً لأكثر من ٢٠ ألفاً من قوات المارينز في الصومال (حلّت مكانها لاحقاً قوات تابعة للأمم المتحدة).

لقد اختلفت أهداف هذه العمليات اختلافاً كبيراً: فعملية الكويت ليست كعملية الصومال (على الرغم من أن القائد في الثانية كان نفسه نائب شوارزكوف في الأولى)، وطلعة فوق ليبيا ليست

كمثل تدخل على الأرض في الكويت أو بيروت. تعدّدت الأهداف، ولكن الوسيلة لم تتغيّر، حتى بدا أن الشرق الأوسط هو بالذات تلك المنطقة التي تستطيع فيها واشنطن تجاوز عقدة التورط الفيتنامي بإرسال عسكرها للمرابطة والمقاتلة والمواجهة. وانتهى العقد المنصرم (١٩٨٢ ـ ١٩٩٢) إلى نتيجة محيّرة بالفعل. فبينما كان الشرق الأوسط، في خضم الحرب الباردة، المنطقة التي لا تتدخل فيها واشنطن عسكرياً أصبح في الثمانينيات هو المنطقة التي لا تأنف فيها واشنطن عن نشر القوات واستعمالها. ولعبت منطقتنا هنا أيضاً دوراً واضحاً في فضح العجز السوفياتي عن المواجهة، وفي تسريع انتهاء الحرب الباردة لمصلحة واشنطن، فلم يعد ثمة كابح حقيقي إقليمي، أو دولي، للتدخل العسكري المباشر، اللهم إلّا تلكؤ مستقر في الرأي العام الأمريكي عن تأييد المغامرات الخارجية لأولاده العسكريين.

ـ ٣ ـ

افتُتح مؤتمر مدريد على هذه الخلفية المثلثة: نجاح أمريكي لعقدين في تثبيت معادلة انعدام القدرة وانعدام الرغبة، انتصار مذهل لأمريكا في حرب باردة سرّعت الساحة الشرق الأوسطية من انتهائها لمصلحة الغرب، استعداد أمريكي واضح للتدخل العسكري المباشر في المنطقة. وكانت هذه القواعد الثلاث في ذهن كلٍّ منا عشية مؤتمر مدريد. والذين، منا، حضروه في الواقع، ما كانوا ليتناسوا تلك القواعد، وما كانت أعمدة صالة قصر الشرق في الناحية المدريدية المواجهة لطريق طليطلة، لتحجب عنهم دخول جورج بوش، دخول الفاتح إلى القاعة، بينما غورباتشوف يحمل في ملامحه علامات النازل عن قريب عن عرش مترنّح، ورئيس الوزراء الاسباني في دور المضيف المتواضع، للخارج منتصراً من نصف قرن من الحرب الباردة، ونصف سنة من حرب الكويت.

ومن أطرف ما سمعنا آنذاك تلك الأصوات الداعية إلى عدم حضور المؤتمر. لا أقول أبداً إن هذه الأصوات عدمت شرعية، ولا أنها لم تكن مفيدة جداً لتحسين شروط الذهاب للمؤتمر. فالمعارضة الداخلية دائماً تفيد المفاوض، إن هو أحسن استعمالها لتنبيه الخصم إلى الخطوط الحمر التي لن يتجاوزها. فلو كانت في مصر معارضة تذكر في أواخر السبعينيات، ولو كان أنور السادات قادراً على القبول بها وعلى توظيفها، لكان عاد من كامب ديفيد بغير الحصاد الضحل الذي عاد به آنذاك. كانت المعارضة لاشتراك العرب مفيدة فعلاً، وكانت شرعية أيضاً، بمعنى أن معظم الحجج التي ساقها أصحاب ذاك الموقف كانت فعلاً مقنعة: فشروط الحضور، وهندسة المؤتمر، ودور الرعاة، ما كانت كلها ما كان العرب إليه يطمحون. لكن أصحاب الموقف المعارض، النبيهون منهم على الأقل، لم يكونوا يجهلون أبداً، أنه لم يكن فعلاً من خيار آخر غير السفر إلى مدريد، وأن الموضوع الأساس كان في تحسين شروط السفر، لا في الاختيار بين الحضور وعدمه. كان جورج بوش في وضع يسمح له باستدعاء اسرائيل والعرب معاً إلى واشنطن، وهو كان في وضع يمنع على ضيوفه الاعتذار. أما جولات جيمس بيكر التسع في المنطقة فما كانت أبداً لتأمين الحضور (فهذا كان مؤكداً) وإنما للاستماع إلى شروط هذا وذاك، والاختيار بينها لبعض العناصر التي قد تسهم في إقناع كل الأطراف بالانخراط في العملية بصورة جدّية. من هنا كان الهاجس الأمريكي منصباً على رفع انتاجية العملية من خلال جوجلة الشروط المتناقضة، والمقارنة بينها، والتوفيق بين مضاداتها، بحيث بدأت عملية التفاوض في الواقع، وإن بصورة غير مباشرة في ربيع ١٩٩١، أشهراً قبل موعد مدريد. واعتقد البعض أنه يفاوض على الحضور، أو أن التفاوض على الحضور كان ممكناً، غير دارين بأن ما سبق مدريد كان تثميراً أمريكياً لموافقة الأطراف على الحضور، بحيث تنطلق المسيرة وفق جدول ومنهاج أمريكيين، تمت صياغتهما من خلال تبادل

الأفكار مع الأطراف الاقليمية، إذ لم تكن واشنطن قد حددتهما قبل ذلك.

وبدا العرب فعلاً وكأنهم استوعبوا مغزى **المسيرة السلمية**، ومدى ارتكازها على الخلفية المثلثة التي تجعل من أمريكا، على الأقل في منطقتنا، قطباً عالمياً أوحد. فمع انهيار الاتحاد السوفياتي، كان على الأمريكان أن يواجهوا نمو أقطاب إقليمية، تحمل في قدراتها المحتملة، إمكانية التحوّل إلى أقطاب دولية، لا سيما **المانيا**، **والصين**، **واليابان**، **وروسيا** بعد استقرارها على حال. وبدت هذه الأقطاب قادرة، في مسائل اقليمية معينة، على ممانعة النفوذ الأمريكي، أو حتى على مواجهته. فاستطاعت المانيا مثلاً، على الرغم من معارضة أمريكية ضمنية، التسريع في تفكيك يوغوسلافيا، وقامت (مع فرنسا) بإنشاء نواة جيش أوروبي، رغم عداء واشنطن للفكرة. وقمعت الصين حركتها الديمقراطية، ثم استفادت من صوتها المانع في مجلس الأمن لتحويل أزمة الخليج إلى ورقة توت طبّعت معها وضعها الدولي بصورة خارقة. وبدأت طوكيو عملية تحديد لذاتها ولدورها، لا تكون بعدها مجرّد امتداد سلبي للمظلة الاستراتيجية الأمريكية.

لكن هذه الأقطاب الممكنة رأت، لأسباب كثيرة، ليس هذا مجال تعدادها، أن ليس من مصلحتها، الآن على الأقل، توزين الدور الأمريكي الأحادي في الشرق الأوسط بالذات، بدور مواجه. فراحت روسيا تصوّت على قرارات مجلس الأمن الخليجية الواحد تلو الآخر، وكذلك فعلت الصين. وقبلت روسيا بدور احتفالي، لا ماهية حقيقية له في صياغة **المسيرة السلمية**، وفي تنفيذها. وقبلت دول أوروبا على مضض بدور هامشي في تلك **المسيرة** مسلّمة لأمريكا قيادة السفينة بمفردها، ولو أنها، بعد انطلاق المسيرة، سعت إلى توسيع رقعتها فيها بدلاً من محاربتها. وفي بيان حكومته الجديدة لم ينطق رئيس الحكومة الفرنسية الحالي بكلمة واحدة، لا عن العرب ولا عن باقي المنطقة خلال ساعتين كاملتين من الإلقاء. ورضخت الدول الصناعية في الإجمال لمحاولات أمريكا جني الثمار التجارية الكبيرة لحرب الخليج، أو معظمها على الأقل.

وكان هذا التسليم العالمي شبه الشامل لأمريكا تكريساً لمسيرة لم تكن آنية. فبينما كانت موسكو بعد قطباً عالمياً، استطاعت واشنطن إدارة دفة محادثات كامب ديفيد بمفردها، وفرضت تنفيذ الاتفاقيات لاحقاً، وكأن لا نفوذ لموسكو في المنطقة على الاطلاق. وإن كان التسليم مفروضاً سنة ١٩٧٩ (أي عند توقيع معاهدة السلام المصرية ـ الاسرائيلية)، فهو أصبح شبه إرادي سنة ١٩٩١ (أي عند افتتاح مؤتمر مدريد) وكان على العرب بالذات أن يلحظوا في مدريد أن غورباتشوف اكتفى بدعوة الموجودين لدعمه في بلاده، وأن الأوروبيين اكتفوا بدور هامشي وبخطاب هولندي داعم لأمريكا، وأن الصينيين لم يعترضوا على تغييبهم، ولا اليابانيين، وبأن دول العالم الثالث كانت تنظر إلى غير مدريد. كان التسليم بأحادية القرار الأمريكي عالمياً شبه كامل، مما لم يعتد عليه جل أبناء المنطقة منذ عصر طويل، وهم الذين ألفوا تنافس القوى وتصادمها على أراضيهم عبر القرون.

وعلى الرغم من تحفظات هذا، ومعارضة ذاك، لم يكن في المنطقة نفسها ما يعوّض فعلاً عن هذا التسليم الدولي بأحادية القرار الأمريكي في الشرق الأوسط. فكيف يكون الأمر غير ذلك وقد أشاحت الدول الكبيرة بنظرها عن التفرّد الأمريكي؟ وكيف يكون غير ذلك وقد بنت واشنطن **مبادرتها السلمية** على قاعدة صلبة، مثلثة الأضلاع، ذكرناها في السطور السابقة؟ اعترضت ايران، وصدرت أصوات خليجية تقول بأن ليس للخليج علاقة كي يحضر، وبرزت مواقف مماثلة إلى حين في المغرب العربي. وسمعنا تشكيكاً هنا وهناك، ورأينا بعض مئات من المتظاهرين، وتنامى إلينا حزن البعض، وأسف آخرين. لكن ما عدمته دول العالم الكبيرة من وسائل ومن محفّزات

لتوزين الدور الأحادي الأمريكي لم تكن دول المنطقة لتقوى على استجماعه.

وانطلقت **المسيرة** إلى واشنطن وعواصم العالم الأخرى في جولات متتالية، سبقتها، كل مرة، تساؤلات حول جدوى الحضور، وفائدة المتابعة. لكن هندسة التفاوض كانت مبنية بصورة محكمة تمنع أي تصرف «غير عاقل». ومن أهم عناصر تلك الهندسة ثلاثة: **الأول**، هو أنها خُططت بطريقة تجعل من يخرج من المسيرة يخسر بالضرورة. **والثاني**، أنها جعلت موافقة الأطراف المعنية مرتبطة بضمانات خطية (مختلفة وإنما غير سرية وغير متناقضة) قدمتها واشنطن قبل مدريد إلى كل من الأطراف المعنية. أما **الثالث**، فهو إقامة وضع يجعل الخيار دائماً بين **المسيرة** كما هي جارية وبين العدم، بالتركيز على أن **لا لعبة في المدينة غير هذه اللعبة**. فإما أن تلعبها، وإما أن تبقى وحيداً وتندم.

- ٤ -

غير أن الأطراف العربية التي استوعبت هذه الهندسة تماماً، كما استوعبت في السابق لزوم الحضور والمشاركة، انطلقت من كل هذه العناصر نحو موقف لا يكتفي بالاعتراف للراعي الأمريكي، بدوره الأحادي، بسيطرته على هندسة **المسيرة**، وعلى انعدام سواها فحسب، بل هي أيضاً، أصبحت إلى حد ما، أسيرة هذه المعطيات. فمنذ انطلاقة مدريد، سارت اسرائيل وسار العرب في طريقين مختلفين تماماً، في ما يخص تأطير مسيرة المفاوضات داخل مجمل علاقاتهم الدولية. فاسرائيل، التي اشتركت في المسيرة، نشطت لتنويع علاقاتها الدولية، وللانفتاح على أكبر عدد ممكن من دول العالم حتى تلك التي كان التعامل معها حكراً على العرب. ومن دون الدخول في تفاصيل هذه الهجمة الدبلوماسية الاسرائيلية الهائلة المتزامنة مع المفاوضات، فلنذكّر القارىء أن التسليم الاسرائيلي بسيطرة واشنطن على **المسيرة السلمية** لم يمنعها (بل على العكس دفعها دفعاً) إلى تمتين وجودها في موسكو، واستباق العرب إلى جمهوريات آسيا المسلمة، وتطبيع علاقاتها مع الهند، وتطوير علاقاتها مع السوق الأوروبية المشتركة، وإعادة المياه إلى مجاريها مع كل الدول الافريقية، وإلى التعاون التكنولوجي مع الصين، والانفتاح على اليابان. وتبدو اسرائيل وكأنها تعمل، وكأن **عصفور** المفاوضات في يدها، وعينها على **عصافير عشرة على الشجرة** تعمل لاصطيادها. وقد يتوقّف معلّق عربي بأسى عند زيارة رئيس اريتريا إلى اسرائيل أو عند المليارات التي تجنيها الصناعة الاسرائيلية في كازاخستان أو أوزبكستان، لأن هذه أخبار موجعة. لكنها في الواقع مواضيع ثانوية بالمقارنة مع النشاط الاسرائيلي المحموم في موسكو وبرلين وباريس وأثينا ونيودلهي وبكين وطوكيو وغيرها من عواصم العالم.

وبينما تعمل اسرائيل بجد ونشاط، وكأن أحادية القطب الأمريكي أمر عابر ينبغي التهيئة لما سيليه من المراحل، حيث يعود النظام الدولي إلى تعددية الأقطاب، بقي جل العرب أسرى الصورة التي كوّنوها لأنفسهم غداة انتصار واشنطن المزدوج في الحرب الباردة، وبالتالي في حرب الخليج. من هنا لا يكتفي العرب بالإقرار بأحادية القطب الأمريكي، ولكنهم يبدون، في معظم الأحيان، وكأنهم يؤكدونها ويثبتونها، بينما يسعى غيرهم إلى استباق انتهائها واستشراف تفتتها. وبينما تسعى اسرائيل إلى تحسين شروط موقعها في التفاوض من خلال تطويق العملية السلمية بنشاط دولي محموم في كل الاتجاهات، يبدو العرب أحياناً وكأنهم استكانوا لمسيرة خُطّط لها من أعوام، فيأنفون النظر إلى سواها، ويعتقدون أن أمانتهم وصدقيتهم مرتبطتان بمدى وفائهم لتلك المسيرة، وبمدى استئثارها باهتمامهم، حتى كاد بعض العرب أن يكونوا أول المدافعين عن أحادية القطب الأمريكي، أول المراهنين على استمرارها، أول المسلّمين بدوامها.

فتماماً كما حمل العرب في السابق قرارات مجلس الأمن، وراحوا في أصقاع الأرض يستجدون تنفيذها دون جدوى، حمل العرب رسائل التطمينات التي كتبها لهم الأمريكان، وراحوا يذكّرونهم بها، ويطالبونهم بتنفيذها. من هنا تردّد ذاك التأسّي على «عدم قيام الراعي الأمريكي بما عليه من موجبات»، أو «عدم وقوف واشنطن إلى جانب الحق، أو إلى جانب التزاماتها». واستمرار هذا الموقف المستجدي من الراعي رعايته، له ما يبرره: فواشنطن هي التي دعت إلى التفاوض، وهي مهندسته، وهي راعيته، وهي المصرّة على استمراره، وهي الآملة بجني ثماره حماية لمصالحها، ودعماً لموقف حلفائها في المنطقة. لكن هذا الإصرار بالتوجه نحو الراعي ليس ما تفعله اسرائيل، ولا هو أساساً أخذ بعين الاعتبار أن الأوضاع العالمية اليوم ليست تماماً كما كانت غداة وقف اطلاق النار في خيمة صفوان. فالسيولة هي المتحكّمة في أوضاع العالم، كما التحوّلات السريعة. والعالم لم يتوقف عن التغيّر المتسارع منذ دخول المفاوضين إلى صالات التفاوض، بل إنه يتغيّر بسرعة مذهلة، بحيث يصبح التمسّك بالقرارات والالتزامات تمسكاً أعمى، دون محاولة تثمير هذه السيولة العالمية، نوعاً من حرمان الذات من وسائل للصمود وللفوز بالشروط الفضلى على طاولة المفاوضات نفسها.

وإن كان العالم قد تغيّر كثيراً منذ مدريد، فإن استذكار بعض معالم هذا التغيّر قد يكون ضرورياً. وأول هذه المعالم استمرار الانتفاضة الفلسطينية وتمكّنها من جعل اسرائيل تعتبر فعلاً أن استمرار الاحتلال له ثمن، بل إن ثمنه يزداد يوماً بعد يوم. وفي اسرائيل جاءت حكومة جديدة غير قادرة على الاستمرار في الحكم إن هي لم تسع إلى سلم مع العرب، فهي أسيرة مسيرة هي نوع من الإسمنت الذي يجعلها متماسكة بعض الشيء. أما الراعي الكبير فقد شهد انتخابات رئاسية جاءت برئيس لن ينتخب مرة ثانية إلّا إذا سعى إلى تحسين الاقتصاد في بلاده. ومن المعالم الأخرى المهمة فشل العالم الذريع في وقف التدهور في يوغوسلافيا السابقة، وفشل الغرب في تثبيت الأوضاع الداخلية في روسيا، وارتفاع حدّة المواجهة بين الدول الصناعية في ساحة المفاوضات التجارية، وشيوع الشك بدور الأمم المتحدة في مجال صنع السلام أو حفظه أو تثبيته، وضرب الركود الاقتصادي الطويل الأمد لأوروبا، واتساع رقعة التشكيك الشعبي بالبناء الأوروبي، وتطور الاقتصاد الصيني بوتيرة يزيد معها الناتج القومي حوالى ١٠ بالمئة كل سنة، وتوقّع عودة الخليج إلى موقع شديد التأثير في سوق النفط العالمية، وفشل محاولات الحدّ من بيع الأسلحة إلى منطقة الشرق الأوسط، وارتفاع التخوّف الغربي من انتشار الأسلحة غير التقليدية، ناهيك عن معالم أخرى، كتزايد حدّة الأصولية الدينية، وامكانات تفكك الهند، وتوقف رقعة انتشار الممارسة الديمقراطية في العالم الثالث، وتهميش افريقيا شبه الكامل.

ـ ٥ ـ

هذه بعض المعالم، وهناك غيرها مما لم نذكر، وهي معالم قد تكون عابرة ومؤقتة، وقد تكون أكثر ثباتاً. وهي معالم يغلب عليها حتى الآن طابع التناقض أكثر من طابع التآلف. ولكن ما يجمعها هو هذا التزامن المذهل، بحيث نصحو كل صباح، وإذا بالعالم قد تغيّر في أحد مواقعه، أو في أحد مفاصله، بحيث نعجز عن التعرّف إليه كما ألفناه لعقود وعقود. وإذا كان العالم يتغيّر بهذه الوتيرة، وإن كان تذكير الراعي الأمريكي بالتزاماته لا يكفي إن كان فعلاً يجدي، فإن على العرب مسايرة هذا التغيّر، واستخلاص العبر من تطوّر مسيرة التفاوض كما بدت لهم حتى الساعة. وقد يكون من المفيد لهم، بين أمور أخرى كثيرة، أن يفكّروا في عناصر تسهم في تطوير موقعهم منها:

١ ـ إن مسيرة التفاوض مستمرة، ولن تتوقف قبل أن تصل إلى ثمار ما. لذا فالخروج منها